

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الرؤية الجمالية فى القرآن

د . الطيب زين العابدين

سأل رجل الرسول (ص) قائلاً :-

» اننى رجل أحب أن يكون ثوبى حسناً ونعلى حسناً أفهدا من الكبر ؟ فأجاب المصطفى لا ، فهذا من الجمال وان الله جميل يحب الجمال « (١) . خشى الرجل السائل أن يكون طلب الزينة فى الثوب والنعل مما يدخله فى زمرة المتكبرين الذين يتعالون على الناس . والتكبر صفة بغیضة فى الدين حتى أن أدنى قدر منها فى قلب المرء يحول بينه وبين دخول الجنة . الا أن اجابة الرسول (ص) تجئ واضحة قاطعة بأن طلب الزينة فى الملبس دون ان تخالطه نية فاسدة هو من باب حب الجمال ، وان الجمال صفة من صفات الله عزوجل اختارها لنفسه وحبابها من شاء من مخلوقاته . وغرسها فى فطرة الانسان منذ ان خلق الانسان ، فلا غرو أن ذكر الامام ابن حزم أن (الجميل) اسم من أسماء الله الحسنی (٢) . فالحديث عن مشروعية الجمال من حيث المبدأ أمر بين لا يقبل الجدل . لذا تحدث القرآن

الكريم عن الاتقان والكمال فى صنع هذا الكون كآية معجزة من آيات الله تشهد له بالقدرة وحسن الخلق والابداع . ومن ثم تلزم الانسان المفطور على معرفة الاتقان والتطلع نحو الكمال أن يدرك عظمة الخالق ويشهد له بالتفرد والوحدانية، قال تعالى :

«صنع الله الذى اتقن كل شىء انه خير بما تفعلون»،(٣).

«صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة، ونحن له عابدون»،(٤).

«وخلق كل شىء فقدره تقديرا»، (٥).

وليس هناك من اتقان وكمال بلا جمال وابداع وروعة تهز وجدان المرء السليم وتبهره وتجعله يسلم بأن الله سبحانه وتعالى هو أحسن الخالقين، وانه جدير بما سمي به نفسه انه « هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى»،(٦)، وانه «الخالق العليم»، (٧) وانه «بديع السموات والأرض»،(٨).

لقد بسط الله - جلت قدرته - مظاهر الجمال والزينة فى كل أنحاء الكون حتى تحيط بالانسان من كل جانب فيدرك عظمة هذا الخالق ويخلص الى النتيجة المنطقية الوحيدة التى يقبلها العقل ، وهى ان لهذا الكون اله واحد لا شريك له هو الذى خلق فأحسن الخلق وهو الذى صور فأبدع التصوير . تجلى هذا الجمال فى السماء التى تحيط بنا من فوقنا ، وفى الأرض التى نمشى عليها ، وفى النبات الذى منه نأكل ، وفى الحيوان والدواب التى تسعى بين أيدينا وعليها نحمل متاعنا وأنفسنا ، بل وفى ذات الانسان الذى يجتمع ويألف ويتزوج . يقول الحق عزوجل :

«ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين»،(٩).

نحن مدعوون الى النظر والتأمل فى زينة السماء وبروجها . ويستنكر القرآن على الانسان الذى لا ينظر الى هذه الزينة ويتأملها ويكتشف

حقيقة الخلق من ورائها :

«أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من

فروج « (١٠) .

ان جمال السماء آية من تقدير العزيز العليم فالذى تبلد حسه عن رؤية هذا الجمال وعن ادراك حقيقته ومغزاه يرتكب خطيئة منكرا تستوجب العقاب الرادع مثل صاعقة عاد أو ثمود .

« وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز

العليم . فان اعرضوا فقل أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة

عادٍ و ثمود « (١١) .

كذلك خلق الله زينة الأرض ابتلاءً لهذا العبد ، هل يؤمن فيطيع أم يكفر فيعصى .

«انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا» (١٢).

وكما تزينت السماء بما فيها من بروج ونجوم وكواكب تزينت الأرض بما خلق الله فيها من نبات مختلفاً ألوانه ومن جبال وطيور وأناس ودواب .

«الم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً

ألوانها ، ومن الجبال جُدُدٌ ببيضٌ وحُمْرٌ مختلف ألوانها وغرايبٌ سود .

ومن الناس والدواب والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك ، انما يخشى

الله من عباده العلماء ، ان الله عزيز غفور» (١٣) .

ان الذين يرون هذه الزينة فى اختلاف ألوان الخلق ويدركون ما وراءها

من حقيقة الوجدانية هم من العلماء الذين يعرفون الله ويخشونه . لقد

فتح الجمال بصيرتهم ، فهم ليسوا أصحاب عيون مبصرة فحسب

ولكنهم أيضا أصحاب قلوب عقلت حقيقة الجمال فتبتلت فى محرابه

للوحد الأحد . لذلك وصفهم القرآن بأنهم علماء لأن «العلم» حقيقة

كونية وراء مظاهر الحياة وشواهداها، والجهل هو الاكتفاء بهذه المظاهر والشواهد .

فعلاقة الجمال بالايمن مثل علاقة العلم به ، كلاهما يقول شيئا عن الخالق وقدرته وعن الانسان وفطرته وعن الطبيعة والكون كمسرح لتلك القدرة وجاذب لهذه الفطرة . والذي يغفل عن هذه الحقيقة ويظن أن الزخرف والزينة هما نهاية الأمر وانهما دليل على قدرة الانسان وحدة في الأرض سيجد الدرس قاسيا حين يأتي أمر الله ويجعل الأرض حصيداً كأن لم تغن بالأمس :

«حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها اناها أمرنا ليلاً او نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون» (١٤) .

وقد وصف القرآن الكريم أن زينة النبات للأرض ليس فقط من أجل المنفعة ولكنها ايضا من اجل البهجة التي تدخلها في النفوس عن طريق حاسة النظر والشم ، «فتمتع الحواس بهذا الجمال مقصد من مقاصد الخلق من شأنه أن يقود الى الذكرى والأناة :

«والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» (١٥) .

لذا ينبغي لكل عبد منيب راجع لربه أن يتخذ من هذا الجمال وما يبعثه في النفس من بهجة تبصرة وذكرى بقدرة الله سبحانه وتعالى .

«وترى الأرض هامدةً فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير» (١٦) .

ما نستمتع به من نبات بهيج هو نتاج بذرة ميتة وأرض هامدة قاحلة سقط عليها الماء فربت فيها الحياة، وكذلك خلق الانسان ابتداءً من

نطفة وعلقة، وكذلك بعثه من جديد . كل ذلك يعنى أنه الحق وانه على كل شى قدير . أما الذى يعشى بصره عن ادراك هذه الحقيقة الواضحة البينة فعليه ان يجيب : من الذى خلق السموات والأرض ؟ ومن الذى أنزل من السماء ماءً ؟ ومن الذى أنبت به حدائق ذات بهجة ؟
 ,,أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تبتوا شجرها، أءالله مع الله بل هم قوم يعدلون ،، (١٧) .

صدق الله العظيم ان الكفار ليعدلون عن الحق ويميلون للباطل والشرك فقد كان حريابهم أن يجدوا من جمال الخلق ودقته دليلا على التسليم والتوحيد ، لكنه الهوى والجحود .

والانعام أيضا لم يخلقها الله ليسخرها الانسان فقط فى منفعتة ولكنه زودها بجمال وزينة تماما للخلق ، وتجليا لقدرة الخالق ، ومتعة لهذا الانسان :

,,والأنعام خلقها لكم فيها دفئٌ ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بلغيه الا بشق الأنفس ، ان ربكم لرؤفٌ رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون،، (١٨) .

وليس الانسان بمستطيع أن يدرك كل مخلوقات الله من دواب وهوام وطيور ، وحيوان . وجمال الخلقة ليس وقفا على الحيوانات النافعة بل قد نجده فى الحيوانات الضارة المؤذية . وتشاء قدرة المولى أن يكون لكل نوع منها جمال خاص به ينسجم مع طبيعته وحجمه وبيئته ، فقد أحسن الله كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين .

أما قمة الخلق الحسن فهو الانسان نفسه .

,,لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ،، (١٩) .

والاحسان هنا دليل التمام والكمال فى خلق الله ، فقد شاءت ارادة الله أن يجي ، هذا الانسان فى أحسن صورة وشكل :

«وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات» (٢٠) .

«وصوركم فأحسن صوركم واليه المصير» (٢١) .

ولم تستعمل كلمة «التصوير» التى تدل على الدقة فى الصنع والموهبة فى التشكيل الا للانسان . ومن تمام نعمة الله على الانسان أن أحسن صورته بما يفوق كل الخلق ورزقه من الطيبات . ولم لا ؟ وفيه نفخة من روح الله تؤهله لوضع خاص بين كل المخلوقات .

«واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشراً من صلصال من حمياً مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» (٢٢) .
 ألا يحق لهذا الانسان أن يؤمن بالله الخالق الوهاب ويشكر له جميل نعمائه عليه ؟ والبشر تتفاوت حظوظهم من الجمال شأن كل المخلوقات (فالضد يظهر حسنه الضد) . ولأن الجمال مما يكسب المرء القبول والانشراح عند الآخرين جعله الله سمة للأنبياء والرسل ، فلم يرو عن رسول قط كان دميم الخلقة . وقد بلغ بعضهم حداً مذهلاً من الوسامة والجمال مثل سيدنا يوسف ابن يعقوب الذى قالت عنه نسوة فى المدينة :

«حاشا لله ما هذا بشراً ان هذا الا ملكٌ كريم» (٢٣) .

وكما جاء فى صحيح البخارى كان الرسول (ص) : ربةً من القوم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، أزهر اللون ، أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً (٢٤) . وقد أورد أبو داود و أحمد (٢٥) انه قال :

«انى رجل حبب الى الجمال وأعطيت منه ما ترى»

ويروى ابن حنبل أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا لرجل بقوله «اللهم جمّله وأدم جماله» (٢٦) .

شاءت ارادة الله أن يختص الأنثى فى الانسان والحيوان بجمال
يعجب الذكر ويجذبه، وليس فى هذا من بأس بل هو سنة الله فى الكون،
لذا خاطب القرآن الرسول (ص) :

«لا يحل لك النساء من بعدُ ولا أن تبدلَ بهنَّ من أزواجٍ ولو
أعجبك حُسنُهُنَّ» (٢٧) .

ان الله لا يريد للنبي أن يتزوج فوق نسائه ولا أن يبديل واحدة بأخرى
ولو اعجبه حسن امرأة ما، لا بأس عليه أن يرى فيعجب ، ولكن ليس له
أن يتزوج . والحقيقة ان الانسان لا يملك ارادة الاعجاب أو عدمه
فهى جبلة فى تكوينه لا يملك حيالها تصريفا ، والجمال فى المرأة
سبب من أسباب زواجها وان لم يكن هو السبب الوحيد ، فالمرأة
الجميلة من تمام احصان الرجل ، والاحصان مقصدٌ من مقاصد الدين .
والمرأة مأمورة بالتجمل والتزين لزوجها كما أنه مندوب للرجل أن
يتجمل ويتزين لزوجه . يجوز للمرأة ان تبدى زينتها للرجال المحارم
من أهلها وما ملكت ايمانهن والتابعين من غير أولى الإربة . وبالطبع
فان كل هؤلاء ينظرون ويعجبون، لكنه اعجاب لا يثير شهوة حرام .
«ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن او آبائهن أو آباء بعولتهن أو
أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى
أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى
الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات
النساء» (٢٨) .

ان الذكر المقتضى فى هذه الآية للرجال الذين يجوز للمرأة أن تبدى
زينتها أمامهم يعنى ألا بأس من الإعجاب بالحسن والجمال طالما كان
هذا الإعجاب لا يثير فتنة ولا يقود الى حرام . اما ما سوى هؤلاء من
الرجال فعلى المرأة ان تكتفى بالظاهر من زينتها ؛ الوجه والكفين ، ان

الحرمة تقع على الرجل الذى يتطلع بشهوة الى جمال امرأة هى حليمة
رجل آخر :

«ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة
الدنيا» (٢٩) .

اما ان اراد ان يتزوجها فله ان يتملاها ويصعد النظر فيها لعله واجد ما
يرغبه فيها . وللمرأة أن تتجمل للخُطَّاب ، فالزينة المحرمة هى التى ترد
فى تناقض مع الايمان بالله والتسليم له بالطاعة .

«ولا تعدُّ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من
أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً» (٣٠) .

فالحرمة ليست فى الزينة ذاتها ولكن فيما تسببه من غفلة ومعصية
لذلك يستخدمها الشيطان فى غواية الانسان والبعد به عن ربه .

«قال رب بما أغويتنى لأزینن لهم فى الأرض ولأغوينهم
أجمعين» (٣١) .

كل أنماط الجمال يحرمها الضلال بها عن سبيل الله . فلهو الحديث
والطرب مما هو مندوب ومطلوب لأن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد
ولا بد من الترويح عنها ساعة بعد ساعة . لكن الذين يتخذون لهو
الحديث للاضلال به عن سبيل الله فليس لهم الا العذاب المهين .

«ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله

بغير علم ويتخذها هزواً ، أولئك لهم عذاب مهين» (٣٢) .

والذين يقصرون همهم على الدنيا وحدها يريدون زينتها والتمتع بلذاتها
توفى اليهم أعمالهم كاملة غير منقوصة وليس لهم فى الآخرة الا عذاب
النار .

«من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها

وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار

وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون « (٣٣) .
وللإنسان أن يجمل نفسه بالثوب الحسن وبالنعل الحسن فقد قال ابن عباس :

«ولقد رأيت على رسول الله (ص) أحسن ما يكون من الحلل» (٣٤) .
فهى تُمدح إذا كانت تجملاً ، واطهاراً لنعمة الله ولكنها تُكره ان كانت تكبراً وخيلاً . فالحقيقة ان الفساد فى النية وليس فى الثوب الجميل او النعل الجميل . وكان صلى الله عليه وسلم لايرد الطيب ويقول :
«ان الله طيب يحب الطيب» (٣٥) .

فالأرواح الطيبة تحب الرائحة الطيبة والأرواح الخبيثة تحب الرائحة الخبيثة . لذلك كانت الملائكة تحب الطيب والشياطين تنفر منه . وليس للمؤمن أن يذكر الله فى المواضع القذرة ذات الرائحة المنتنة ، فالطيبات من الأعمال للطيبات من الأماكن ، والخبيثات من الأعمال للخبيثات من الأماكن . والطيب يفرح الطلب ويسر النفس ويبسط الروح تماما كما يفعل الايمان عندما تمتلئ به النفس حتى ليذوق المرء فى نفسه حلاوته . هناك مرقى سام يلتقى فيه الجمال بالايمان فيتكاملان ولا ينفصلان ، فلا يزيد الجمال النفس الا قوة فى الايمان بالخالق، ولا يزيدها الايمان الا شفافية أكثر نحو الاحساس بالجمال .

ان الذين وهبهم الله الجمال فى الخلق او منحهم القدرة على اقتناء الجمال فى الملبس او المركب أو المنزل عليهم أن يحمدا الله جلا وعلا على جزيل نعمائه ولا يفسدوا هذه النعمة بالغفلة أو المعصية . الا أن هناك قوم خصهم الله بجزء من قدرته فى صنع الجمال مما يمتع الناس يؤثر فى نفوسهم . فقد سخر الله لنبيه داوود من يصنع له الجمال الذى يستوجب الشكر .

«يعملون له ما يشاء من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب

وقدور راسياتِ اعملوا آل داوود شكراً وقليل من عبادى
الشكور ،، (٣٦) .

هناك من يصنع الجمال بيديه كالمحاريب - أماكن العبادة - والتماثيل
والجفان والقدور الراسيات ، ومن يصنعه بصوته وآلته فيشرف الآذان
نغما شجيا ، ومن الناس من يصنع الجمال بسحر بيانه شعراً كان أم نثراً
للناس ان تستمتع بهذه الموهبة البشرية فى صنع الجمال ولا تغفل بها
عن ذكر الله وعليها ان تعرف أن هذه الموهبة نعمة من نعم الله ايضاً
على هؤلاء البشر الذين اصطفى تماماً كما اودع الجمال فى السماء أو
الأرض أو النبات أو الحيوان أو الانسان اما صانعو الجمال هؤلاء فيقع
عليهم واجب اكثر من واجب الشكر والعرفان . اذ التكليف والمسئولية
تزيد وتنقص بقدر القدرة التى اودعها الله فى الانسان . فالذى وهبه الله
القدرة على صنع الجمال يلزمه أن يسخر هذا الجمال فى اتساق مع
ارادة الخالق الذى ما خلق الجن والانس الا لعبادته . انها هبة عظيمة
ان يمتلك هذا المخلوق الضعيف شيئاً من قدرة الخالق فى صنع جمال
يؤثر فى النفوس ويمتلك الوجدان . وتستوجب هذه الهبة ان يسخرها
الفنان صانع الجمال فى الايمان بالله وتوحيده عن كل شرك . فالفن
ينبغى ان يكون عملاً رمزياً يومئ الى مثال كمال يعرف به المرء ربه
ويفيض على الفنان مدداً روحياً . ويمكن عن طريق الفن ان يقبل كثير
من الناس الى رحاب الله . اما الذين يفسقون عن هذا السبيل فقد
جحودوا نعمة الله جحوداً عظيماً ، وعليهم ان ينتظروا عاقبة ذلك
الجحود ألا وهى الخسران المبين . ان استحقت التماثيل التى ذكرت
أنفا الشكر من آل داود فهناك تماثيل هى الضلال المبين .

،، اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون .
قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وأبائكم فى ضلال

مبين « (٣٧) .

والشعراء الذين آتاهم الله هذه النفحة الساحرة من البيان ويسلكون بها طريق الغواية والضلالة، سيعلم هؤلاء أى منقلب ينقلبون . أما الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وانتصروا لدين الله فأولئك هم أهل النجاة فى يوم الحشر الاكبر .

«والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم فى كل وادٍ يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون» (٣٨) .

ان المثل الذى ينبغى ان يحتذيه الفنان صانع الجمال ، هو مثل نبي الله داود الذى رزقه الله سبحانه وتعالى حلاوة فى الصوت ونداوة حتى ان الجبال والطير تردد معه تسييحه لله وذكره له .

«ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له

الحديد « (٣٩) .

«وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين» (٤٠) .
ان هذه الموهبة المعجزة فى صنع الجمال الى الحد الذى تأتى فيه الطيور لتسمع صوت داود لا تكافأ الا أن يسخرها صاحبها فى سوق الخلق الى تسييح الله وذكره . وقد استمع المصطفى (ص) الى الصحابى الجليل أبى موسى الاشعري فأعجبه صوته فقال له :
«لقد أوتيت مزاراً من مزامير آل داود» (٤١) .

وقال عليه الصلاة والسلام :

«زينوا القرآن بأصواتكم» (٤٢) .

وقال :

«ما أذن الله لشئ كاذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن» (٤٣) .

اي مكانة رفيعة يعطيها الله لهذا الفنان المبدع ان يجعل صوته مما يزين القرآن ويجمله وهو كلام الله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ان القرآن نفسه قمة سامقة من الجمال بلفظه المعجز وبيانه المحكم ومعانيه التي تقبلها الفطرة السوية بلا تلجج لذا كان الصوت الحسن مما يزيد ذلك الجمال ويجليه لكل ذى عقل واع وأذن مرهفة .

وكم من النفوس دخلت حظيرة الايمان لمجرد استماعها لتلاوة القرآن . فالذين يعرفون كيف يستمعون لا بد لهم ان يتبعوا أحسن الحديث هذا :

«الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» (٤٤) .

اما الذين يخشون ربهم فتصيبهم قشعريرة حسية عند سماع هذا القرآن، الأمر الذى يؤكد الترابط الحسى والمعنوي فى الانسان .
«الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود

الذين يخشون ربهم» (٤٥) .

بل الحيوان يمكن له أن ينفعل بتلاوة هذا القرآن ، اما الملائكة فتدنوا للاستماع له حتى توشك أن تظهر للناس ، فقد أورد الامام البخارى حديث الصحابى أسيد بن حضير الذى كان يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده تجول حين يقرأ وتسكت حين يسكت ثلاثا حتى توقف ورفع رأسه الى السماء فاذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، ولما لقي الرسول (ص) قال له

«وتدرى ماذا؟ قال لا ، قال تلك الملائكة دنت لصوتك ولو

قرأت لأصبحت ينظر الناس اليها لا تتوارى منهم» (٤٦) .

وما كان كفار قريش يخشون شيئا كما يخشون القرآن لما يعلمون من اعجازه وتأثيره على النفوس . وقد وصفه الوليد بن المغيرة وهو من

اعلم قريش بالشعر وبالرجز - بعد أن استمع الى النبي (ص) وهو يتلوه:
 أن لقوله الذى يقول حلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وانه لمثمر أعلاه ،
 مغدق أسفله ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه ، وانه ليحطم ما تحته .
 ,,السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن,,. لذلك احتاروا فى أمره، وصفوه
 تارة بأنه شعر وتارة بأنه اساطير الأولين وتارة بأنه سحر . وما وجدوا
 مخرجا سوى ان يوصى بعضهم بعضا الا يستمع لهذا القرآن ويلغوا فيه .
 ,,وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه,, (٤٧) .

وصدق الله العظيم الذى قال عن نبيه انه ما تعلم الشعر وما ينبغى له :
 ,,وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، ان هو الا ذكر
 وقرآن مبين « (٤٨) .

اراد الله ان يكون هذا القرآن بكمال معناه وجمال مبناه هو معجزة خاتم
 أنبيائه الى الخلق كافة الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وتحدى
 الخالق عزوجل قريش وهم أهل الفصاحة والبيان أن يأتوا بمثل هذا
 القرآن ، بل ان يأتوا بعشر سور مثله مفتريات أو سورة واحدة وأن يدعوا
 من شاءوا لمساعدتهم فى تلك المهمة . وقد أعجزهم ذلك تماما . وما
 نقلته الينا كتب السيرة من محاولات بعضهم تبدو وكأنها لعب من عبث
 الاطفال . اما العقلاء منهم فقد أمسكوا عن مجرد المحاولة بالرغم من
 صلابتهم فى الكفر واستفزاز التحدى لهم أمام كل العرب . والتحدى
 قائم لمن شاء الى يوم الدين الا أن النتيجة معلومة قد قررها الله بسابق
 علمه الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء :

,,قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن
 لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا,, (٤٩) .
 لذا ما كان للمؤمن اذ تلى هذا القرآن الا أن يستمع وينصب ويخشع
 فيستجيب .

«وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون» (٥٠).
وكيف لا يخشع المؤمن ويستجيب ان كان الجبل الاصم يخشع
ويتصدع اذا أنزل عليه هذا القرآن .

«لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية
الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (٥١) .

العبادة نفسها حالة من حالات الجمال لأنها تأتلف وتتسق مع
جمال الكون العابد الساجد لله رب العالمين . فالصلاة جمال مشهود
حين يصطف الذين آمنوا كالبنيان المرصوص ، الكتف مع الكتف
والرجل مع الرجل يتجهون الى قبلة واحدة ، يقومون معا و يركعون معا
ويسجدون معا هذا مشهد جليل فى النفس وكان سببا فى ادخال
الكثيرين الى حظيرة الايمان . وكأن هذا الجمال لا يكفى أمر الله عباده
بأن يتزينوا للصلاة فيغتسلوا ويتطهروا ويستاكوا ويتطيبوا ويلبسوا
احسن ما عندهم .

«يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا
تسرفوا انه لا يحب المسرفين » (٥٢) .

وروى الامام احمد فى مسنده ان النبى (ص) قال :

«من اغتسل يوم الجمعة ، ومس من طيب ان كان له، ولبس من
احسن ثيابه ، ثم خرج وعليه السكينة حتى يأتى المسجد ، ثم يركع ان
بدا له ، ولم يؤذ أحدا ، ثم انصت اذا خرج امامه حتى يصلى ، كانت
كفارة لما بينهما» (٥٣) .

كما ان المسجد الذى هو موضع الصلاة ينبغى ان يكون من احسن
المباني واعلاها ، وينبغى ان يعتنى به فينظف ويفرش ويحمر بالبخور
الطيب . وقد شهد تاريخ المسلمين عناية فائقة بالمساجد حتى وكان
فن العمارة الاسلامية كله يدور حول المسجد . فالصلاة جمال فى

الجسم والمكان وتفكر في الله .

الحج ايضا جمال مشهود حين يتقاطر الناس من كل فج عميق يرتدون زيا واحدا ، رداء ابيض وازارا أبيض . مظهر هذه الحشود وهى تطوف معا حول البيت العتيق ، وتسعى بين الصفا والمروة ، وتقف كلها فى وقت واحد على عرفة وترمى الجمرات فى منى لمشهد يأسر الوجدان ويهز النفوس . وقد لبي الكثيرون من الناس حين رأوا هذا المشهد الجليل نداء الحج : لبيك اللهم لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

بعد كل ما يزخر فى هذا الكون من دلائل ومعان تشهد على الارتباط والتكامل بين الجمال والايمان يأتى من يقول للناس بحرمة الجمال ، او بحرمة التمتع به ، او بحرمة صنعه وابداعه ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم . والقرآن يستنكر على هؤلاء مثل هذا القول :

«قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق، وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وان تقولوا على الله ما لا تعلمون» (٥٤) .

ان الحرمة للفواحش - ماظهر منها وما بطن - أما الجمال والزينة فنعمة من الله على العباد كافة وخالصة للذين آمنوا يوم القيامة ، وهو طريق الى الايمان . فالجمال فى مجالاته المختلفة وسيلة من وسائل الايمان والدعوة قد يكون أبلغ تأثيرا من حقائق العلم لأنه يعم كل الناس ولا يخص اهل العلم فقط كما أنه يخاطب الشعور والوجدان محضن الايمان فى الانسان .

اما حين تشاء ارادة الله ان ينفخ فى الصور ، وتطوى الارض كطى

السجل ، ويبعث الناس من قبورهم ليوفوا حسابهم فان الجمال
السرمدى والنعيم المقيم سيكون من نصيب الذين آمنوا بقدرة الخالق
وعملوا الصالحات ، كما ان القبح المجسم والعذاب المهين سيكون من
نصيب اولئك الذين اداروا ظهورهم لكل مظاهر الجمال والابداع فى
هذا الكون وجحدوا نعمة الله ، واغرقوا انفسهم فى المعصية والفسوق .
وقد ذكر لنا القرآن طرفا مما سيلقى هؤلاء . فهم فى : سموم وحميم ،
وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، ويطعمون شجرة الزقوم ، التى
تخرج من اصل الجحيم طلعتها كأنه رؤوس الشياطين ، ثم ان مرجعهم
بعد ذلك لآلى الجحيم ، وحين يغاثوا يغاثون بماء كالمهل يشوى
الوجوه (٥٥) . فلا غرو أن طفح القبح يومذاك على وجوه هؤلاء القوم :
«ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة اولئك هم الكفرة
الفجرة» (٥٦) .

اما الذين عرفوا جمال الكون وادركوا حقيقة مغزاه يفيض ذلك على
وجوههم جمالا وبشرا .

«وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة» (٥٧) .

وقد صور لنا القرآن الكريم فى وصف مطول بديع طرفا من هذا الجمال
السرمدى والنعيم المقيم الذى اعده الله لعباده الصالحين :
«فى سدر مخضود . وطلع منضود . وظل ممدود . وماء
مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة . وفرش مرفوعة .
انا انشانهن انشاء ، فجعلناهن اباراً ارباباً» (٥٨) .

«ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ، ويطاف عليهم
بآنية من فضة واكواب كانت قوارير . قوارير من فضة قدروها
تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا عينا فيها تسمى
سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا

منثورا . واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم ثياب
سندس خضرٌ واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً
طهوراً ، (٥٩) .

كل هذا الجمال الممتع الممرع انما هو من باب التشبيه والتقريب فان
حقيقة الجنة فوق ذلك بكثير. فهي كما قال المصطفى (ص) :
,, فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب
بشر ,, (٦٠) .

وسدرة المنتهى فى ذلك الجمال السرمدى هى رؤية الله جل جلاله
ورضوانه الاكبر . تلك الرؤية التى لم يطقها الجبل الاصم فصار
دكا وخر موسى صعقا. تلك الرؤية يحتملها المؤمن فى ذلك الموقف ،
بل هى النعيم الاكبر :

,,وجوه يومئذ ناضرة ، الى ربها ناظرة ، (٦١) .

,,ان الأبرار لفي نعيم، على الأرائك ينظرون . تعرف فى

وجوههم نضرة النعيم,, (٦٢) .

واهل العشق الالهى لا ينتظرون شيئا فى هذه الدنيا مثل ما ينتظرون
ذلك الحدث الاعظم ، يكادون ان يغفلوا عن كل شى سواه . ان
الجمال المادى والمعنوى هو رمز واحد لذلك الكمال الالهى المطلق
فلا ينبغى للعبد المؤمن الموحد أن يفرق بينهما ويصرفه انحراف
الفاسقين بالجمال المادى عن ادراك أصل هذا الجمال كأعظم آيات
الله فى هذه الحياة الدنيا . ان الجمال هو ملء هذا الكون منذ بدايته
وحتى منتهاه، فهو نعمة من نعم الله على الانسان وآية من آياته المعجزة
وصفة من صفاته الكمالية ، وأما فى الآخرة فالجمال المحض والكمال
الحق هو الله لا اله الا هو . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم :
,,ان الله جميل يحب الجمال,, .

الهوامش

- ١ - صحيح مسلم : الايمان ، سنن ابن ماجة : الدعاء ، مسند أحمد ١٣٣/٤ ، ١٣٤ ، ١٥١ .
- ٢ - انظر سنن ابن ماجة ، الدعاء .
- ٣ - النمل / ٨٨ .
- ٤ - البقرة / ١٣٨ .
- ٥ - الفرقان / ٢ .
- ٦ - الحشر / ٥٩ .
- ٧ - يس / ٣٦ .
- ٨ - البقرة / ٢ .
- ٩ - الحجر / ١٦ .
- ١٠ - ق / ٦ .
- ١١ - فصلت / ١٢ - ١٣ .
- ١٢ - الكهف / ٧ .
- ١٣ - فاطر / ٢٧ - ٢٨ .
- ١٤ - يونس / ٢٤ .
- ١٥ - ق / ٧ - ٨ .
- ١٦ - الحج / ٥ - ٦ .
- ١٧ - النمل / ٦٠ .
- ١٨ - النحل / ٥ - ٨ .
- ١٩ - التين / ٤ .
- ٢٠ - غافر / ٦٤ .
- ٢١ - التغابن / ٣ .
- ٢٢ - الحجر / ٢٩ - ٣٠ .
- ٢٣ - يوسف / ٣١ .
- ٢٤ - صحيح البخارى : المناقب ، سنن الترمذى : اللباس والمناقب ، مسند أحمد ٢٤٠/٣ .
- ٢٥ - سنن ابى داؤد ، اللباس .
- ٢٦ - مسند أحمد ، ٧٧ / ٥ ، ٣٤٠ .
- ٢٧ - الأحزاب / ٥٢ .
- ٢٨ - النور / ٣١ .
- ٢٩ - طه / ١٣١ .
- ٣٠ - الكهف / ٢٨ .
- ٣١ - الحجر / ٣٩ .
- ٣٢ - لقمان / ٦ .
- ٣٣ - هود / ١٥ - ١٦ .

- ٣٤ - سنن أبي داؤد : اللباس .
- ٣٥ - سنن الترمذى : الأدب .
- ٣٦ - سبأ / ١٣ .
- ٣٧ - الأنبياء / ٥٢ - ٥٤ .
- ٣٨ - الشعراء / ٢٢٤ - ٢٢٧ .
- ٣٩ - سبأ / ١٠ .
- ٤٠ - الأنبياء / ٩٧ .
- ٤١ - صحيح البخارى : فضائل القرآن، صحيح مسلم : كتاب المسافرين ، سنن الترمذى : المناقب ، سنن النسائى : الافتتاح ، سنن ابن ماجه : الاقامة ، سنن الدارمى : الصلاة وفضائل القرآن ، مسند أحمد : ٣٦٩/٢ ، ٤٥٠ ، ٣٤٩/٥ ، ٣٥١ ، ٣٥٩ ، ٣٧/٦ ، ١٦٧ .
- ٤٢ - صحيح البخارى : التوحيد ، سنن ابى داؤد : الوتر ، سنن النسائى : الافتتاح ، سنن ابن ماجه : اقامة ، سنن الدارمى : فضائل القرآن ، مسند أحمد ، ٢٨٣/٤ .
- ٤٣ - صحيح البخارى : التوحيد وفضائل القرآن ، صحيح مسلم : كتاب المسافرين ، سنن ابو داؤد : كتاب الوتر ، سنن الترمذى : ثواب القرآن ، سنن النسائى : الافتتاح ، سنن الدارمى : الصلاة وفضائل القرآن ، مسند أحمد ٢٧١/٢ ، ٢٨٥ ، ٤٥٠ .
- ٤٤ - الزمر / ١٨ .
- ٤٥ - الزمر / ٢٣ .
- ٤٦ - صحيح البخارى : فضائل القرآن .
- ٤٧ - فصلت / ٢٦ .
- ٤٨ - يس / ٦٩ .
- ٤٩ - الاسراء / ٨٨ .
- ٥٠ - الأعراف / ٢٠٤ .
- ٥١ - الحشر / ٢١ .
- ٥٢ - الأعراف / ٣١ .
- ٥٣ - مسند أحمد ٨١/٣ ، ٤٢٠/٥ - ٤٢١ .
- ٥٤ - الأعراف / ٣٢ - ٣٣ .
- ٥٥ - راجع الآيات من سورة الصافات ٦٢ - ٦٨ .
- ٥٦ - عبس / ٤٠ - ٤٢ .
- ٥٧ - عبس / ٣٨ - ٣٩ .
- ٥٨ - الواقعة / ٢٨ - ٣٨ .
- ٥٩ - الانسان / ١٤ - ٢١ .
- ٦٠ - صحيح البخارى : بدء الخلق ، التفسير ، التوحيد ، صحيح مسلم : الايمان ، الجنة ، سنن الترمذى : التفسير ، سنن ابن ماجه : الزهد ، مسند أحمد : ٣٣٤/٥ .
- ٦١ - القيامة / ٢٣ .
- ٦٢ - المطففين / ٢٢ - ٢٤ .